القاص موفق العساف:

لم اخرج من معطف غوغول.. بل من محلة رأس الجادة الموصلية!

حاوره: سامر الياس سعيد

أثارني سؤال محوره "من هو موفق العساف"؟ رغم ان هيئته تدعو لاعتباره من إبطال روايات نجيب محفوظ لكن لكنته لاتندمج مع حكاياتهم، فالقاص موفق العساف يحمل رؤية مختلفة عن مدينة الموصل تتركها نسمات كلامه وأنت تنصت إليه بكل خشوع داعيا ان تكون رؤيته منسجمة مع ما اختزنته ذاكرتي حول المدينة الأثيرة طوال أعوامي الثلاثة بعد الثلاثين وانا أرنو الى حكاياتها في أزمان سابقة وارسم لها صورا في هواجسي.. فتأتي حكايا العساف تارة متطابقة مع واقع تخيلاتي وتارة مختلفة كثيرا. والسؤال الاستفزازي الذي بدأت به هذا الحوار ربما ساور كثيرين قبل ان يفضوا الى متن السطور القادمة من حوار ليرتشفوا معي كوبا من الشاي بمعية شخصية تحمل الكثير من الإمكانيات في هيئة تضفي عليها مسحة من التواضع والخجل والتواري خلف كواليس مسرح الحياة.

* بدأت أولى خطواتك مع الحياة في عشق لأجواء التمثيل، فهل له الفضل في بلورة ذائقتك الأدبية؟.

–(ينتفض ويعدل من جلسته ويقول)، "التمثيل لا يجعل الممثل كاتبا للسيناريو، وعادة من يكتب السيناريو كاتب متمرس في فنون الأدب.. قد يغرى الممثل ومن خلال تجاربه مع ما قدمه من أفلام الى اللجوء إلى كتابة السيناريو، لكن ليس بالرؤية الناضجة حيث لكل اختصاصه.. الأديب الراحل (نجيب محفوظ) مثلا برع في كتابة السيناريو وهو لم يقف أمام الكاميرا واحتل مكانة مرموقا في السينما تعادل مكانته في عالم الأدب، واستطاع أن يغير وجه السينما المصرية وينحو بها نحو الرصانة ويفتح الطريق أمام مسارات جديدة في الكتابة السينمائية. بينما فشل القاص والمسرحي (يوسف إدريس) في كتابة رؤية سينمائية، وهي أسهل من فن السيناريو.

وعلى الرغم من إطلاعي على حرفيات السينما عبر القراءة ثم العمل فيها (حيث كان مصادفة) أن أقف بصف (كومبارس) أمام كاميرة المخرج الأمريكي (وليام فريدكن) عندما جاء إلى الموصل وأخرج وصور بعض لقطات ومشاهد فلمه (التعويذة) عن قصة (لأجاثا كريستي) كان عمري آنذاك ثمانية أعوام (وفي حوزتي شهادة من الشركة المنتجة يونفيرسال) ثم بحكم علاقة وصداقة المخرج قاسم حول مع شقيقي الراحل (خير الدين العساف)، حيث قدمني في فلمه (بيوت في ذلك الزقاق) عام(١٩٧٦) في دور صغير إلى جانب نجوم الفلم (عبد الجبار كاظم وريكاردوس يوسف وجمال أمين وسناء عبد الرحمن).. أيضا كانت لي تجربة تمثيلية مع المخرج الراحل (صاحب حداد) بفضل المخرج (قاسم حول) الذي قدمني اليه بعد عودته من لبنان، والذي عمل في استوديوهاتها أكثر من (١٥) عاما، وعملت مع المخرج (يوسف شاهين) في فلم (بياع الخواتم) فجعلني أشارك معه خلف الكاميرة وأمام الكاميرة في أول فلم روائي من إخراجه وقصته وإنتاجه وساهم مع (محمد شكري جميل) و(صباح عطوان) في كتابة السيناريو.. الفلم عنوانه (يوم آخر) كان إنتاجه عام (١٩٧٩) وهو يروي مأساة عائلة غجرية حدثت في مضارب الغجر أدى إلى إبادتها من قبل إقطاعي طامع، كان دوري مع هذا الإقطاعي (تمثيل طالب الفراتي، خليل شوقي، ناهده الرماح، سلام زهرة)، ولدي كذلك شهادة موقعة من المؤسسة العامة للسينما والمسرح، وهذه لا تعتبر تجارب وإنما رغبة وهواية وهي لاتمكنني من أن أخوض مضمار الكتابة السينمائية وفن السيناريو.. ولكن من واقع احترافي لكتابة فن القصة القصيرة ربما استطيع ان اقدم قصة بمواصفات ما تتطلبه السينما.

* اذن ما هي حكايتك مع لغة العالم (الموسيقى)؟.

– اعتقد ان إيقاعاتها هي أصلا قصص جاهزة، وقد استفاد أغلب أساطين النغم من الدراما والمحاكاة الإغريقية والرومانية ثم أعمال (شكسبير) ومن نتاج الشعراء.. وقدموا ملحنات (سيمفونيات) تعتبر الآن من الشوامخ الأدبية والفنية. وهذه التجربة نجحت في عموم الوطن العربي (الرحابنة – الفرق الموسيقية الشعبية) لأنهم أدركوا أن الموسيقى هي عملية انفعال غريزي.. كذلك هي مظهر من مظاهر الحياة الثقافية (خاصة حفلات فرق السيمفونيات الوطنية في العراق ومصر)، ففي تاريخ الموسيقى ما زالت النهضة الكلاسيكية والتي انتقلت على أيدي فنانين عاشوا في أحضان القصور والكنائس.. ثم منهم من عكس روح الثورة الفرنسية وأهوال الحربيين العالميتين حيث تنازلوا عن عروشهم في مجتمعاتهم المخملية في الكنائس والقصور.. وأنا أرى أن الموسيقى مرتبطة بشكل رئيسي بالغناء، ومن هنا لعبت الموسيقى دورا كبيرا في تكوين وجدان الإنسان العربي المحكوم بالويلات والكوارث (السياسية).. فمثلا الكلمات تؤثر في تكوين إيقاع الموسيقى، فالنص أيا كان يستمد هذا الإيقاع لخلق جو تعبيري، خذ مثلا (قارئة الفنجان) شعر (نزار قباني) وألحان (الموجي) وغناء (عبد الحليم حافظ).. هو نص شعري ساهمت الموسيقى والألحان في تقديم إيقاعه الإبداعي، كذلك العكس مثل ما قدمه موزارت وهايدين وجاكوفسكي وبتهوفن وشوبان.

* اذن ماذا استوحيت من أنغام الكمان الذي جاهدت لتتعلم مبادىء العزف عليه ؟.

– اعتقد ان الموسيقى أوحت للكثيرين من كتاب القصة والرواية أفكارا وخيالات نجحوا فيها نحو أعمال خلدتهم، لا أنكر أن رغبتي في تعلم الموسيقى جعلتني أتشبث أكثر في عالم القصة.. وظل صدى الموسيقى يمنحني خيالا ومدى واسعا، بحيث غامرت في (دراسة الكمان) رغم الظروف الصعبة التي واجهتني ازاء ذلك.. وأود أن أشير الى جهد الأستاذ عازف الكمان (نبيل حسون) وفضله علي من خلال إهدائه لي (آلة الكمان).. فمنحني بذلك حرية العزف ابتداء بالسماعي ثم ضمن دراسة شبه أكاديمية أتقنت العزف بالنوتة.

* أدوات القصة.. من اين تلتقط ثمارها.. من بستان أجواء المدينة مثلا؟؟.

– الأديب نجيب محفوظ رغم أنه لم يكن كاتب مصر الوحيد وإن قلمه لم يغادر القاهرة وأزقتها وحاراتها إلا أنه استطاع أن ينال جائزة نوبل للأداب عام١٩٨٨، حيث عبر من المحلية الى العالمية.. استطاع كذلك أن يبرز الهموم والمعاناة الإنسانية من خلال شريحة ضيقة من الطبقة الوسطى المصرية وطرح من خلال الحارة المصرية كل الأسئلة التي تتعلق بالمصير الإنساني.. وتعبيرا لنقل الواقعة فإن أغلب الذين يدورون في محور القصة يقولون نحن خرجنا من (معطف غوغول).. أنا خرجت من (رأس الجادة) من زقاق يقع في الشرق الأدنى من مركز مدينة الموصل وهي بداية البوابات للخروج الى الأحياء الجديدة وهي كذلك الباب المشرع إلى البادية.. خاناتها مقرات للأعراب الوافدين ودروبها ممرات لجزيرتهم وقراهم. عشت فيها وبين بوابات الموصل (باب سنجار، باب البيض، باب الجديد، باب لكش) ومنذ صغري وأنا مفعم بالمرارة والجراح لما رأيته في مدينتي المهملة المتداعية الآيلة للسقوط.

ومدينة الموصل هي غريبة الأطوار مدهشة.. سنوات عمرنا فيها مكابدات مع الأغراب والعنف والاستعمار وانقلابات واحتلالات.. ولايزال المحتل وأعوانه يمعنون في خرابها.. فهي إذن تغري الكاتب أيا كان في مجال القصة أو مجال الرواية أو المسرح عالمها هي كل الحياة.. حيث أن الحياة فيها قمة وقاع وبين هذا وهذا مستويات عديدة تناسب أشخاصا عديدين، وهي مكبلة بالتقاليد، محتشمة محكومة بالدين والمال.. والراصد أو القاص يحتار أيهما يختار.. رغم أن الإغراء فيها موجود فالنهر يعشق المدينة ويمضي أبدا.. والمآذن والكنائس والآثار والمراقد والأشجار والأزقة الملتوية والخانات والقناطر والأديرة والأسواق والمقاهي، هذه الأماكن تضعك أمام علامات استفهام، الاستكشاف اليومي الجديد ثم التنبؤات.. والأعراق المتآخية هي طبيعة المدينة والتي تفشي الأسرار أكثر من إعلان (كولومبس) اكتشافه لقارة امريكا المشاغبة.. الموصل تقودك الى مجاهلها وخباياها وحين تركن الى رجل عجوز سوف يمنحك اكتشافا آخر مثلما يمنحك الصبي اكتشافا غريبا عندما تترصده إن كان لقيطا أو متسولا أو ابن ذوات.. وحين تدخل الشوارع الخلفية فإنك تجد فيها الدهشة، يغريك الدخول فيها ويفاجئك شارع حلب أو سوق هرج وباب الطوب وزعيق مركباتها.

لابد من الاعتراف بأن تأثيرات مختلفة هيمنت على ثقافتي وفي عالم القصة القصيرة كان نجيب محفوظ الذي أعطانا سر الواقعية وفتح لنا أبواب الحارة.. ثم كان ماركيز الذي أضاف إليها سحرا فكشف لنا عن المجهول في النفس الإنسانية من خلال الأعوام المسحوقة مع مرور الزمن كان لي أسلوبي وعالمي وشخوصي.. وتحس في أقاصيصي أنفاسا عديدة تتصاعد تشعرك بوجود (ماركيز وهمنجواي وفوكنر وتشيخوف وغوغول وعبد الرحمن منيف والطيب صالح) وشعراء المعلقات و(المتنبي) وكذلك وجود (نزار عباس ومحمود جنداري وغائب طعمة فرمان وجبرا إبراهيم جبرا).. ومن الموصل كنت أتلهف لجديد القاص الكبير (أنور عبد العزيز) حيث يغمرنا في تدفق سردي كثيف ثم يتركنا نتألم مع شخوصه الذين ينتقيهم من قاع المجتمع.. لا زلت أتذكر في أولى قراءاتي لعبد الرحمن وكيف أنه جعلنا نختار السترة (الجاكيت) التي تناسبنا.

* ينحو قلمك احيانا نحو اشباع غريزة البحث في بلاط صاحبة الجلالة.. هل هو مسايرة لزمن الصحافة الراهن؟.

– منذ فتحنا أعيننا والمناخ السياسي كان مضطربا ومنذرا باتجاهات وأفكار وانقلابات، وظل الوطن يتراجع تحت وطأة المؤامرات، وكنا في مركز الجذب وفي أتون العصف السياسي.. كذلك رأينا أنفسنا ننصهر في خضم التجربة الهائمة والتي أثرت وانعكست على الأدب، وكان لابد أن نتجه الى الصحافة.. هذا الاتجاه خلق في الأعماق صراعا وجوديا لابد أنه سيحسم في قادم الأزمنة لصالح الأدب، لأن الذي حدث في العراق لم يحدث في التاريخ ولا في الكون.. وقد كتبت قصة قصيرة بعنوان (إبحار سفينة محطمة) هي من وحي الكتابة الصحفية.. لأنه بعد التاسع من نيسان (عام الاحتلال) كنا على موعد مع ديمقراطية كادت أن تكون ملجأ للعراقيين.. لكنها تحولت الى ملجأ أيتام مع ركام الصحف بعناوينها الفضفاضة، والتي تبطن ما نؤمن به من أننا مستعمرون في بلادنا.. كانت هذه القصة هي محاكاة للواقع العراقي وفيها سؤال كبير متى يخرج العراق من ظلماته؟.. اليوم مضت أربع سنوات من الاحتلال المدمر مع نذر الحرب الأهلية وانقسامات الأحزاب والقوى السياسية المؤتمرة بأجندة أمريكا ومناخ الموت.. وما زالت أقلامنا هي روحنا التي نجحت في الامتحان وهي قوتنا التي لم تجعلنا نركع ولن نقبل أن تسود فينا ثقافة العنف أو أن تستشري فينا التبعية الثقافية.. لأن ما يجري في العراق ليس مدعاة للألم والحزن فقط وإنما مدعاة للتفكير والتحرك لإنقاذه.

* رفرفت أجنحتك بعيدا عن مدينتك الأثيرة بدافع وظيفي فهل أغنت تجاربك القصصية؟.

– بالتأكيد، فطيلة عشرين عاما من المهام الوظيفية التي بدأت من عام ٨٠ والتي عايشت فيها أحداث الحرب العراقية الإيرانية وحرب الخليج وما تمخض عن العدوان الأطلسي من حصار وقهر وغلاء وظلم.. في تلك السنوات كنت معتمرا في بقعة مكانية كائنة في أرض سومر وبابل وهي جزء من بناء حضاري قديم وجزء من بناء حضاري معاصر حيث موطن الزراعة والصيد والنفط والأهوار.. رحلة الى أعماق الروح العراقية المتعلقة بوهم قدري كائن مجهول وبالموروثات الدينية مع مهام عملي.. وخلالها كنت مواظبا على التهام ما تقدمه مواد دسمة من مجلات أدبية مثل الآداب اللبنانية والأقلام والأديب المعاصر والطليعة وأسفار.. ولعل لمجلة أسفار دورا أساسيا في اتجاه بوصلتي نحو الأدب، حيث نشرت أكثر من قصة رغم أن أول قصة لي نشرت في مجلة الطليعة الأدبية وفي مجلة قصص التونسية عام١٩٧٧.. وفي الوقت الذي بدأت أنشر في الصحف والدوريات بعض المقالات والنقود الأدبية المختلفة بدأت أدرك انحيازي نحو القصة القصيرة وهو يكاد يكون الطاغي على ما عداه، حيث كانت القصة القصيرة تنحو بتيارين الواقعية والرمزية.. وكان أبرز ممثلي هذين التيارين في العراق (محمد خضير وغازي العبادي وأنور عبد العزيز ومحمود جنداري وعبد الرحمن مجيد الربيعي وموسى كريدي).. وأصبحت بحكم تواجدي الطويل في الجنوب ضمن المشهد الثقافي للمحافظات (ميسان، ذي قار، البصرة والمثنى).. حيث كنت أرسل النشاطات الثقافية للصحف والمجلات مع تغطية عامة.

في العمارة دخلت (مستعمرة الجذام) المنشأة وسط صحراء مدينة (كميت) وشاهدت أنفاسي لاهثة في بقايا رجال يبرز الألم السحيق من عيونهم، وفي السماوة دخلت بحريتي معتقل (نقرة السلمان الأثري) والمبني في منطقة نائية في أقصى الجنوب العراقي تعبث بها الكثبان الرملية وتوحي لزائرها بأنها تتحول كل يوم من مكان الى آخر، عدا ما يثير الانتباه وجود بقايا كثيرة من عظام تتناثر عليها العظميات.. لا أحد يعلم لمن تلك العظام لبشر أم لحيوانات؟؟. وفي الناصرية عشت مع الصابئة وطقوسهم وتعرفت الى صناع الذهب وصياغتهم وعلى المنجمين وقراء الفال والكف وخفايا علم الغيب من بركات النبي إدريس في عالم الرمل.. وفي شارع الحبوبي وسط الناصرية أنصت الى النواحات البعيدة لحضيري أبو عزيز وداخل حسن.. وفي البصرة كنت أقف بجوار تمثال السياب أتأمل شط العرب والخليج الذي لم يمنح له المحار والردى إنما الموت ليس على أرضه وفي مسقط رأسه (جيكور) وظل يلهث بالهجيرة (عراق وليس سوى العراق) حتى قضى بين لعنة الاضطهاد ولعنة المرض وألم الغربة ولعنتها.. وفي الأهوار هذه الأماكن القصية (هور الحمار، هور الجبايش، هور المدينة) تلك الحضارات المائية المسيجة بمناخات الأرض القصبية بتركيبتها الاجتماعية التي ينمو فيها الخوف من المجهول وحيث القضاء والقدر يتحكم بمسار الناس اليومي.. وفي متاهات الهور التي لا يعرفها إلا رجل الهور والذي يعرف قوة الأمواج ونباته وحركة الأسماك ورفرفة طيور الخضيري وهرولة خنازيره والزوارق ورائحة خبز (السياح) والتي تصنع من دقيق الرز والخريط (مونة قصب السكر).. هذه الرحلة هي حقبة لم تكن بالحسبان لأنها منحتني ينابيع أخرى أسهمت في تكوين منظومة فكرية عامة عن الحياة والإنسان والعالم توضحت أهميتها عندما وجدت مدى انعكاسها داخل البنية القصصية.. كذلك الأهمية للفنون الإبداعية الأخرى كالشعر والمسرح والسينما والموسيقى والفن التشكيلي.. هذه الفنون التي تدخل في نسيج العمل الأدبي الجديد والمغاير في عصرنا الراهن.

* هل لك ان تختصر لنا سيرتك الأدبية؟.

– صدرت مجموعتي القصصية الأولى (بقايا رجل) عام ١٩٨٦ عن وزارة الثقافة والإعلام، والمجموعة الثانية (الكلب ورائحة القرانس) عام ١٩٩٩ عن وزارة الثقافة والإعلام، وعن ثقافة ضد الحصار صدرت المجموعة الثالثة بعنوان (الظلمة والمصباح السحري) عام ٢٠٠٠.. وعلى نفقتي الخاصة أينعت لي مجموعة شعرية بعنوان (نحن حتى الحلم) عام ٢٠٠٢.. كذلك صدرت عن دار الأمد المجموعة القصصية الرابعة بعنوان (الخوف الأكبر) عام ٢٠٠٦ وهي أربع قصص قصيرة لم تنشر من قبل أنجزتها خلال هذه الحقبة من الاحتلال وهي تروي تداعيات الاحتلال وتأثيره البالغ على المواطن العراقي مع ما أحاطه من فقدانه لكل شيء عدا الأمن والاطمئنان الذي أصبح سرابا.. كما لدي مشاركة في مجموعة قصصية مشتركة بعنوان قصص من نينوى (الجزء الثاني) عام ٢٠٠١.. وفي رأيي الشخصي ان هذا المشروع ناجح وحقق هدفا مهما وهو تعدد الأجيال القصصية والأساليب والمضامين.. بحيث تحس أنك تقرأ كتاب متنوع لكن في النهاية يمتلكك إحساس أن تعيد قراءته مرة أخرى

العراقيون في اليمن..

إنتظار مستقبل أكثر إشراقاً

بهرا. متابعات

عندما جاء أحمد الرفاعي إلى العاصمة اليمنية صنعاء، كان كغيره من العراقيين يحذوه الكثير من الأمل في حياة أفضل ومستقبل أكثر إشراقا. إلا أنه وبعد ستة أعوام، ما زال يحمل نفس الأمل دون أي تغيير.

ويقول أحمد، وهو شاب في الثلاثين من العمر يعمل كواحد من عشرات الحلاقين العراقيين في صنعاء ويحلم بالعيش يوما ما في أوروبا "اليمنيون شعب طيب ومضياف. لقد رحبوا بنا وفتحوا لنا بلادهم للعيش فيها. إنني راض عن حياتي هنا. فأنا قدمت إلى هنا منذ وقت طويل مما سهل استقراري. أما من يأتون الآن فقد تواجههم صعوبات أكثر". ويتفادى أحمد في حديثه أية إشارة إلى كونه لاجئ.

ويمكن أن تعزى هذه المشاكل إلى التغيير الجديد في سياسة الحكومة اليمنية التي أصدرت قرارا جديدا ينص على وجوب حصول كل العراقيين الراغبين في دخول اليمن على تأشيرة. ويعتبر هذا القرار تحولا كبيرا في سياسة الحكومة اليمنية التي كانت تسمح لكل العرب بدخول البلاد دون اشتراط الحصول على أية تأشيرة.

وبالرغم من هذا، فإن وضع اللاجئين العراقيين في اليمن، والبالغ عددهم حوالي ٧٠ ألف عراقي معظمهم من المثقفين والمحترفين، يعتبر أفضل بكثير من وضع أقرانهم في الأردن أو سوريا. وبالرغم من تخوف الحكومة اليمنية من تدفق أعداد اللاجئين العراقيين إلى البلاد، إلا أنها أبدت تفهما كبيرا لوضعهم، بحسب تصريح للمفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين.

وقال سامر حدادين، وهو مسؤول حماية أول بالمفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين بصنعاء، "اليمنيون ينظرون إلى اللاجئين العراقيين على أنهم مواطنين عرب استطاع البعض منهم أن يندمج بشكل جيد داخل المجتمع اليمني". فمنذ وصول اللاجئين العراقيين إلى البلاد خلال الحرب العراقية الإيرانية، طبقت الحكومة اليمنية عليهم مبادئ الوحدة العربية، أي أنها اعتبرتهم مقيمين يتمتعون بحق العمل والتعليم والاستفادة من المزايا الاجتماعية التي يستفيد منها العرب المقيمون في اليمن.

ومن جهتها قالت جيرالدين تشيتلارد، وهي خبيرة بارزة في شؤون اللاجئين العراقيين بمعهد الدراسات الشرقية بالأردن، "بإمكان العراقيين من الناحية النظرية المطالبة بحق اللجوء في اليمن، لكنهم يختارون ألا يفعلوا لأنهم بذلك يحصلون على حقوق أكثر واستقرار أكبر باعتبارهم مواطنين عرب".

وبالنسبة لشذى صالح، مدرسة اللغة الإنجليزية في المعهد الملكي بصنعاء، فإن تركيزها الكامل ينصب على مستقبل عائلتها. وقد جاءت شذى، ٤٥ عاما، وأم لثلاثة أطفال، إلى صنعاء منذ سنة، قادمة إليها من بغداد بعد أن بدأ زوجها وهو ضابط في الجيش العراقي في عهد صدام حسين بتلقي تهديدات بالقتل، مما يفسر خوفها على مصير عائلتها. وتقول شذى "جئنا إلى هنا هربا من العنف في العراق. حياتنا في اليمن أفضل ولكن لا زلنا نعاني من العديد من المشاكل".

وقد اختار العديد من العراقيين الموجودين في اليمن، ومن بينهم شذى، عدم تسجيل أنفسهم لدى المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين وفضلوا عوضا عن ذلك تجربة حظهم في البلاد بطريقتهم الخاصة. وبذلك لم يتم تسجيل سوى ٢٩٢٦ عراقي لدى المفوضية.

ومن جهته، يتساءل عراقي آخر يدير مشروعا ناجحا في صنعاء عن جدوى التسجيل لدى المفوضية قائلا "لماذا أحتاج إلى تسجيل نفسي لدى المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين؟".

تجدر الإشارة هنا إلى أن الحكومة اليمنية تمنح حق اللجوء لجميع الصوماليين بشكل مباشر، في حين تلزم طالبي اللجوء من الجنسيات الأخرى، البالغين حوالي ٥٠٠٠ طالب لجوء، بالتسجيل لدى المفوضية السامية لشؤون اللاجئين والخضوع لتقييم شامل يحدد مدى ملائمة وضعهم لشروط اللجوء.

شارع أبي نواس في بغداد يسعى لاستعادة مجده التليد

ميدل إيست أون لاين

حين يقدم الجنرال ديفيد بتريوس قائد القوات الاميركية في العراق تقريرا للكونجرس عن نجاح استراتيجيته العسكرية في العراق من المرجح ان يشير الى طريق مطل على نهر دجلة في بغداد تحف به اشجار الكافور تكلف تجميله وتجديده مليوني دولار.

ويهدف المشروع الذي صاحبته دعاية مكثفة لاقناع العراقيين بان الحملة الامنية التي قادتها الولايات المتحدة منذ شباط الماضي في العاصمة نجحت في كبح العنف الطائفي المرير وخفض عدد تفجيرات السيارات الملغومة وجرائم القتل التي ترتكبها فرق الاعدام. ومن المقرر ان يدلي بتريوس بشهادة امام الكونجرس عن أثر زيادة القوات بواقع ٣٠ الف جندي. ويتوقع ان يبلغهم ان الاستراتيجية الامنية الجديدة تؤتي ثمارها.

وقال الميجر انتوني جيدج المسؤول عن المشروع وهو يقف تحت ظل شجرة بشارع ابو نواس لاتقاء الحر القائظ "سيحدد التقرير النجاحات التي اتاحتها زيادة القوات، وهذا المشروع احدها". وثمة مخاوف من ان يضحي المشروع الضخم هدفا رئيسيا للمسلحين، ولكن الشكوك بشأن موعد افتتاحه فعليا وشكاوي الشركات بشأن عدم كفاية التمويل والتصميم الرتيب للمباني تجعل النجاح غير مضمون.

وتغير شارع ابو نواس وهو من اشهر شوارع بغداد كثيرا على مر الاعوام، وكان يشتهر من قبل بحاناته وملاهيه الليلية ومطاعم السمك والحديقة التي تمتد الى نهر دجلة حيث كانت تتنزه الأسر. ثم جاء الغزو الذي قادته الولايات المتحدة وقضي الشارع نحبه فيما تحصنت العاصمة خلف جدران تحميها من تفجير سيارات ملغومة لتفصل اطنان من الكتل الاسمنتيه الشارع عن بقية المدينة.

واغلقت المتاجر ابوابها وتراجعت مبيعات المطاعم التي تقدم السمك المسقوف وهو طبق عراقي شهير من السمك المشوي على الحطب من ٧٠ سمكة يوميا الى خمسة فقط. وانهار الشارع حيث اعتاد السفير الاميركي رايان كروكر التنزه حين عمل في بغداد لأول مرة في بداية السبعينات وظل على هذه الحال حتى نيسان، حين بدأ الجيش الاميركي بالتعاون مع الحكومة العراقية ومجلس بلدية بغداد مشروعا يعيد للشارع الذي يحمل اسم الشاعر الذي اشتهر في القرن الثامن ميلاديا مجده القديم.

ويعاد فتح الشارع رسميا هذا الاسبوع رغم ان العديد من المتاجر لم تنته من التجديدات. وخلال زيارة للشارع في الاسبوع الماضي بدا مهجورا الى حد بعيد بينما اغلقت المتاجر ابوابها او نوافذ العرض. ورغم الدعاية على محطات تلفزيونية عراقية فان من الصعب اغراء العراقيين بالمغامرة بالعودة الى الشارع، اذ ان الاسواق المزدحمة واماكن التسوق الهدف المفضل لمدبري التفجيرات بسيارات ملغومة.

ويستعد حيدر هاشم مدير قاعة فنون العقاد لاعادة فتح ابوابها، وايضا لاحتمال ان يصبح الشارع هدفا للمسلحين العازمين على اثبات فشل الاستراتيجية الامنية الاميركية.

ويقول "لا يزال الوضع الأمني خطيرا والناس يخشون التردد على الشارع. اتوقع وقوع هجوم". ورغم ذلك يأمل ان يعود العراقيون لشارع ابو نواس. ويمكن الوصول الى الشارع من خلال اربع نقاط تفتيش، وسيسمح بدخول السيارات لاجزاء معينة، وسدت الشوارع الجانبية بجدران للحماية من التفجيرات. وتقوم القوات الاميركية بدوريات مستمرة.

وقال جيدج "هناك حوالي ٣٠٠ من افراد الامن.. قوات التحالف وأمن خاص والجيش العراقي. السيارات الملغومة السبب الرئيسي لقلقنا". ويعني تهديد هجمات محتملة اعادة فتح الشارع بدون ضجة وعدم الافصاح عن الموعد المحدد.

ويرى جيدج ان ابا نواس واحة للهدوء في منطقة قتال، ويضيف "ما من شك ان يحاول العدو استغلال ذلك وسنبذل قصارى جهدنا لتقليصه". وقال "يمكن ان يأتي العراقيون لهذا المكان لاستعادة الاحساس بالحياة الطبيعية، ويمكنهم ان يصحبوا اطفالهم في مكان آمن دون قلق من طلقات الرصاص او الانفجارات".

وتقول الميجر شارون فالك مسؤولة الشؤون المدنية التي تساعد اصحاب المتاجر على الوقوف على اقدامهم بمنحهم ٢٥٠٠ دولار، وهو مبلغ بسيط، انها تأمل ان يمتد تأثير إحياء الشارع لمناطق اخرى ويشجع على مزيد من التنمية.

وقال البريجادير جنرال فنسينت بروكز نائب القائد العام للخدمات المعاونة لدى الادارة متعددة الجنسيات في بغداد "اذا وفرت الظروف الملائمة واعدت بناء مناطق فسيعود الناس".

واستعان المشروع بمقاولين عراقيين من الباطن وعمالة محلية، رغم ان التمويل جاء من الجيش الاميركي والوكالة الاميركية للمعونة الدولية.

ويتساءل علي مهدي وهو صاحب متجر اسماك ببغداد وهو يجلس إلي مائدة من البلاستيك ممسكا بقطعة قذرة وبالية من القماش "كيف يمكنني ان اصنع منها حلة" ليبين عدم كفاية المنحة الضئيلة التي حصل عليها. ويبدى مهدي وبعض اصحاب المطاعم المطلة على النهر في الشارع عدم رضاهم عن المبلغ المالي الذي قدم إليهم لاعادة تشغيل المطاعم، ويشيرون للواجهات الموحدة الرتيبة التي فرضها عليهم مقاول البناء.

ويضيف "آمل أن يعود الشارع لما كان عليه من قبل ولكن لا اتوقع ذلك. يفترض ان تكون بداية جديدة. اعتقد انهم يريدون اثبات ان الأمن تحسن ولكن الأمر لايقتصر على شارع واحد".